الفصل الثلاثون

انا مسجونة في الدير

كان إيڤان قد بدأ بالانحطاط . فمن الشائع لدى الروس أن ينظر الى الانسان في سن الأربعين على أنه مسن. ومن السهل أن نفهم أن حالة طول الأعمار كانت نادرة في عهد إيڤان الرهيب . كان إيڤان قد أصبح ثقيل الحركة وتزايدت شراهته وشهواته الجنسية وصار يتعب من أي مجهود وينام مدة اطول ، وكان عدد الإعدامات يقل كلما كان ينام . وفي خلال عامي ١٥٧٤ ـ ١٥٧٥ قام نزاع مستمر حول من له حق التصدر في البلاط مما أعطى الفرصة للقيصر في توسيع تشاؤمه الغريب . فقد كان يعتقد انه محاط بخونة خطرين بينما لم يكن كل البلاط مخلصاً له فحسب بل منبطح ودنيء أيضاً .

وقد وجه الامبراطور مكسمليان سؤالاً للسفير سوكورسكي : كيف يمكن أن يوجد روس يخدمون طاغية بمثل هذه الطاعة والعناية . واجاب السفير :«نحن الروس نخلص لعاهلنا سواء كان طيباً او قاسياً».وحدث مرة ان رجلا مرفوعا على الخازوق بقي يكيل لجلاده القيصر آيات المديح وسط آلامه حتى آخر زفرة في حياته . لذلك كان سهلا على إيڤان أن يحل الصعوبات الناجمة عن مسألة الصدارة ومكانة حديث النعمة الطارىء الجديد بوريس غوردونوف . كانت كلمته قانونا . فلم يكن إلا أن يعلن عن المرتبة التي سيحتلها رجل في البلاط أو الجيش حتى يكون قراره مقبولا بدون اعتراض . ولكنه بدلا من ذلك ترك العائلات تختصم . وكما سيفعل بطرس الأكبر من بعد فإن إيڤان كان يفضل الموهبة على نبالة